

قضية في رسالة:

١٩٩٣
سبتمبر



يب محمود

تعليق على كلمات الطاهر بن جلون:

مسألة الانتماء العربي.. والازدواجية الثقافية

حول الحوار الذي أجرته صفحة «فكر عربي» في الأسبوع قبل الماضي مع الكاتب المغربي الطاهر بن جلون، جاعنا هذا التعليق من القاص المصري ميلاد حلمي الذي يعيش في باريس منذ سنوات، وصدرت له رواية بالعربية بعنوان «المسوخ».

يقول ميلاد في تعليقه:

من يقرأ كلمات الكاتب المغربي الطاهر بن جلون، يدرك على الفور مدى المازق الثقافي وربما الحضاري الذي يعاني منه عدد لا يستهان به من المثقفين المغاربة الذين يتكلمون ويكتبون بالفرنسية.

ميلاد حلمي

أديب مصري - باريس

فالازدواجية الثقافية تحسب لهم، إذا قست بمقياس الانفتاح على الثقافة العالمية، وتحسب عليهم إذا أدى هذا الانفتاح إلى ضياع الهوية وصراح أحدهم كحال الطاهر بن جلون.

٢٠

أنا كاتب عربي بالطبع! وقد نفهم هذه الصرخة إذا كان بن جلون كاتباً صحفياً، وقد نفهمها إذا كان متخصصاً في العلوم أو الرياضيات، باعتبار أن اللغة في العلوم ليست إلا وعاء، أما مشكلة بن جلون الحقيقية فهي أنه يكتب في الأدب.

وغرابة صرخة بن جلون لا يفوقها غرابة سوى الحوار الذي أجراه هو نفسه قبل فترة مع المفكر المغربي عبد الكبير الخطيبي لصحيفة «لوموند» الفرنسية، والذي أكد فيه الخطيبي أن فرنسا تحتضر ولن يبقى منها سوى لغتها، وأن الأمة العربية ستقرض ولن يبقى منها سوى أفرادها.

ومن حديث الخطيبي في صحيفة «لوموند» نلاحظ مدى اهتمامه باللغة دون الخوض في المعطيات الأخرى، ومن حديث بن جلون في «الأهرام» نلاحظ مدى إنكاره لدور اللغة كمحك أول وحقيقي في اختيار الأدب. وهنا تكمن المفارقة بين فهم الرجلين الكاتبين. ولأشك أن إصرار بن جلون على اعتبار أدبه أدباً عربياً يفرض علينا مغضلات جديدة مثل:

● هل أدبه المكتوب بالفرنسية هو أدب عربي لأن اسم الكاتب عربي، أم لأنه يعالج بيئة ومناخاً عربياً؟

فيذا كانت الأولى - أي لأن الاسم عربي - لسارعنا بضم مسرحيات جورج شحادة، واندريه شديد إلى حظيرة الأدب العربي، وهو ما لا يمكن تصوره بالطبع!

أما إذا كانت الثانية - أي لأن البيئة عربية - لكان علينا أن نطالب بنفس الشيء لرباعيات الاسكندرية التي ألفها كاتب أجنبي.. وهو ما يصعب تصوره أيضاً!

ما أريد أن أقوله هو أن مشكلة الأدب هي انه ابداع.. وانه خلاق، ويجب أن يكون له هدف، ليس فقط في المضمون ولكن أيضاً في اللغة وتعبيراتها وفراكيبيها واستقلالها. الأدب يعني إثراء اللغة وتطويعها لتساير تغيرات المجتمع، وتدفعه إلى الامام.

إذا ارتبطت اللغة بصراع حضاري، وإذا أصبحت في حد ذاتها إشكالية ورمزاً كما هو الحال في المغرب العربي - أصبح الاختيار - إن كان الاختيار ممكناً - ذا دلالة. وبين جلون يجيد العربية، وقد فضل الكتابة بالفرنسية.

وإذا كان بن جلون ينكر اللغة وأهميتها، فقد دفع ثمن ذلك باهظاً في أدبه. فقصصية التعبير الأدبي يقصد بها ما تتميز به كل لغة من تراكيب تخضع لعوامل وآليات متعددة، منها الذاتي ومنها الموضوعي.

أما الذاتي فيتعلق بالجانب الأسلوبي، وما يتضمنه التعبير من خبرة شخصية للكاتب تحمل في ثناياها ملامح البيئة والحضارة والوعي.

أما الموضوعي فيتعلق بارتباط هذا التعبير بلغة ما تستخدمها بيئة جغرافية واجتماعية معينة، بل وعصر محدد.

وتفاعل كل هذه العوامل هو الذي يخلق الصديق الأدبي، وهو الذي يخلق القيمة الجمالية في العمل الأدبي، وهو الذي يؤثر في وجدان القارئ في النهاية.

فالأديب بتنفس مجتمعه وعصره، ويتقبل تفاعلاته بلغته، ثم يتعامل معه بنفس اللغة، وأي خلل في العوامل السابقة يخلق تناقضاً في العمل الأدبي.. وهذا ما أتصور أنه يحدث في أعمال بن جلون.

فحين تناول النفس العربية في أجواء مغربية وحاول معالجتها باللغة الفرنسية حدثت الفجوة، وضاع الصديق. فقارئ أعماله بالفرنسية قد يتعاش مع جو الرواية ومناخها المغربي، وقد يستطيع الكاتب نقله إلى هناك، ولكنه - أي القارئ - يعجز عن تصور هذا الحوار الذي يدور سلساً في الفرنسية ولا يجد له مرادفاً شائعاً في العربية، وإن وجدناه ففي غير مستوى الشخصية المغربية ويصعب اجراؤه على لسانها، وهو ما يؤدي إلى اختفاء الصديق الأدبي.

أما إذا استعجنا عن المقالة ونادينا بعالمية الأدب، فلا ننسى أن الأدب العالمي هو الأدب القادر على هز النفس البشرية في أي مكان، وبالأحرى في المكان الذي نشأ فيه الأدب أو البيئة التي خرج منها.. فهل أثر بن جلون في بيئته المغربية بادب المكتوب بالفرنسية؟

الإجابة - في رأيي - هي بالنفي، لأن أعمال بن جلون تعيش مازقاً لا يختلف كثيراً أو قليلاً عن مئات الآلاف من المغاربة الذين يعيشون كغرباء في فرنسا، وحين يعودون إلى بلادهم في الاجازات الصيفية، يتعامل أهل البلد معهم كسياح غرباء!

قد نتفهم مشكلة بن جلون لو صرخ قائلاً: أنا سجين اللغة الفرنسية! وقد نتفهمه لو كان أهل بلده يرفضون اللغة العربية ويطلبون أدباً فرنسياً! لكن للأسف - اللغة العربية هي الوحدة القادرة على لمس الوجدان العربي. فتأعني في النهاية هي أن الطاهر بن جلون قد يكون كاتباً عربياً يكتب موضوعات عربية، ويثرى اللغة الفرنسية، لكنه لن يكون أبداً، أدبياً أو مبدعاً عربياً.

وصورة عصرها الذي يختلف عما سبقه من عصور. أما البني غير الرياضية في مادتها - أي شبه الرياضية من حيث الشكل البنائي لها: فيزهايتها - عند الحكم عليها بالحرام والحلال مثلاً - إنما يكون بردها إلى أصولها لاستكشاف اتفاق الفرع مع الأصل (الذي هو النص الديني أو الأخلاقي) في الكتاب المنزل بالوحي أو السنة النبوية بالقول والفعل. فما ليس علماً أو رياضيات تخضع لشروطها الذاتية تطبق عليه المعايير الخاصة بالأدب والفن والدين.

ولا غرابة في ان تؤدي بفيلسوف الوضعية المنطقية الصارم والتجريبية العلمية المتشددة إقامته في أمريكا ثلاث سنوات (١٩٥٣ - ١٩٥٥) استذاً محاضراً في الفلسفة الإسلامية ثم مستشاراً ثقافياً بالسفارة المصرية.. إلى أن يضم إلى المعاصرة والتحديث في بناءه الفكرى الأصالة التراثية والتزود بالتقاليد. فالمحافظة والمحلية والعنصرية في ثقافات سكان الولايات الأمريكية التي زارها، بل الدين والإيمان بالمقدسات حتى لدى علماء الطبيعيات الذين زاملهم، فضلاً عن لاهوتية المتخصصين في الفلسفة أنفسهم..

أظهرته على أن الثقافة الغربية ذاتها ليست كلها علماً تجريبياً أو وضعية منطقية، وإنما يشوبها - على غير ماكان يتوقع -

أيدولوجيات سياسية ووجدانات عقائدية وعصبية عنصرية. الأمر الذي أنتهى به إلى أن يرسم لنا

الخط المستقيم الذي ينبغي للثقافة العربية أن تسير عليه فوق خريطة مثلثة الأضلاع: إحياء التراث كمصدر إلهام لا للمحاكاة والتقليد، متابعة التيارات الفكرية والأدبية الغربية لاستلهامها فيما هو

عصري وجديد، الإبداع المستلهم من كلا الاتجاهين. فالببناء الثقافي العربي الذي انتهى إليه لنفسه

وللعرب جميعاً قوامه القدرة على العيش بالعقل والوجدان معاً، أي الجمع بين أصالة التراث ومعاصرة معارف الغرب وتقنياته

من حيث هي علم تجريبي ووضعية منطقية.